دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی
دوره ۲، شماره ۳، پیاپی ۵، پاییز و زمستان ۱۴۰۲

نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
السنة ۲، العدد ۳، التسلسل ۵، خريف وشتاء ۲۰۲۳

تقديم وتأخير الأسماء المزدوجة في القرآن الكريم ودورهما في دلالات الآيات

داود معماري*[۱] (الأستاذ المشارک، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران)
حيدر الجعباوي الكعبي[۲] (أستاذ في كلية التربية، جامعة ميسان، العراق)
محمد رضا پيرچراغ[۳] (الأستاذ المساعد، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران)
محمد سبحان ماهري قمي[٤] (الماجستير في نهج البلاغة، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران)

DOI: 10.22034/JILR.2024.140343.1108

CC BY

تاريخ دريافت: ۱۴۰۲/۰۹/۲۷
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۲/۱۲/۲۷

صفحات: ۱۱۳-۱۳۷

تاريخ الوصول: ۲۰۲۳/۱۲/۱۸
تاريخ القبول: ۲۰۲۴/۰۳/۱۷

الملخص

إن مبحث التقديم والتأخير من أكثر المباحث البلاغية والدلالية التي نالت اهتمام علماء المعاني والمفسرين، ذلك الاهتمام الذي تجلى في رصدهم لصور التقديم والتأخير المتعددة في القرآنالكريم، وما تؤديه كل صورة من قيمة دلالية تفسيرية مضافة إلى المعنى الأساسي. إن التقديم والتأخير واد من أودية البلاغة، وان هذا المقال يدرس التقديم والتأخير في بعض الآيات القرآنية، وفي هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي مع المنهج التطبيقي واستخدام موارد المكتبة من أجل الإجابة على الأسئلة مكانة التقديم و التأخير في اللغة العربية، البواعث و الأسباب في التقديم والتأخير و شأن التقديم و التأخير في مفردات القرآنالكريم تم تحديده بعد التحقيق أنّ التقديم و التأخير في القرآن الكريم لغرض يقتضيه المقام، والمعنى الإلهي، والسياق القرآني، وكل تقديم وتاخير فيه جرى على حكمة بالغة، وقدرة فائقة و له جزئان. قسم في علم البلاغة وهو تقديم بعض الأركان و الأجزاء في الجملة، نحو تقديم المسند عَلىٰ المسند اليه أو تقديم المفعول عَلىٰ الفاعل؛ والقسم الآخر يبحث في تقديم وتأخير المفردات في القرآن؛ نحو الجن والإنس، السماء والأرض، الليل والنهار، والشمس والقمر وغيرها من الأسماء المزدوجة.

[۱] الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: memari@isr.ikiu.ac.ir
[۲] البريد الإلكتروني: alkaabi.hayder1985@gmail.com
[۳] البريد الإلكتروني: m.pircheragh@isr.ikiu.ac.ir
[٤] البريد الإلكتروني: orvatolvosgha110110@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: التقديم، التاخير، الأسماء المزدوجة، الدلالة، القرآن‌الكريم

تقدیم و تأخیر اسماء مزدوج در قرآن کریم و نقش آنها در دلالت و معانی آیات

چکیده

مبحث تقدیم و تأخیر (جلبه جا کردن یک لفظ از جایگاه طبیعی آن) یکی از مباحث بلاغی و معنایی قرآن کریم و از اسباب اجمال است که همواره مورد توجه دانشمندان علم معانی، قرآن پژوهان و مفسران قرار گرفته است. این اهتمام در کنکاش پیرامون جنبه‌های مختلف اسلوب تقدیم و تأخیر در قرآن کاملا ظهور و بروز دارد تا جاییکه هر گروه (بلاغیون – مفسران) به جنبه‌ای از زیبایی این هنر از حیث معنا و دلالت و تفسیر آن توجه نموده است. در این پژوهش، سعی شد تا به کشف اسرار و بیان معانی آیاتِ شاملِ تقدیم و تأخیر در اسماء مزدوج قرآن بپردازد؛ از این‌رو شیوه تحقیق توصیفی تحلیلی بوده که با رویکرد کاربردی و تطبیقی از منابع کتابخانه ای برای پاسخ به سوالات تحقیق بهره گرفته است. مهمترین سوالات اصلی تحقیق حول جایگاه اسلوب تقدیم و تأخیر در زبان عربی، انگیزه ها و اسباب تقدیم و تأخیر و نیز جایگاه و اهمیت تقدیم و تأخیر در فرهنگ واژگانی قرآن کریم است. پس از بررسی مشخص شد که تقدیم و تأخیر در قرآن کریم برای مقصودی است که مقام و معنای الهی و سیاق قرآنی، آن را اقتضا می‌کند و هر تقدیم و تأخیر در قرآن با درایت، حکمت عالی و قدرت برتر الهی همراه بوده است. این مقاله در دو بخش تنظیم شده است: بخش نخست؛ بررسی این مقوله از زاویه علم بلاغت است شامل: تقدیم برخی از عناصر و اجزای جمله، تقدیم مسند بر مسند الیه و یا تقدیم مفعول بر فاعل و بخش اصلی پژوهش پیرامون تقدیم و تأخیر واژگان در قرآن است که به بررسی مواردی مانند تقدیم و تأخیر اسماء جن و إنس، سماء و أرض، لیل و نهار، شمس و قمر و مانند آنها از دیگر اسماء مزدوج در قرآن می‌پردازد.

کلیدواژه‌ها: تقدیم، تأخیر، أسماء مزدوج، دلالت، قرآن کریم

المقدمة

ومن أجل إيصال مفاهيم القرآن للإنسان، استخدم الله تعالى كلمات وعبارات يتبع ترتيبها وموقعها في الجملة الأدب العربي في ذروة البلاغة، والتقديم والتأخير، بالإضافة إلى تجميل المظهر، تسبب فعالية في بعض المفاهيم والانطباعات. بمعنى آخر، يستخدم القرآن ترتيباً خاصاً في الجمل مع المضارع للتعبير عن غرضه وهدفه، بحيث يمكن نقل الرسالة بمنتهى الدقة ويمكن التعبير عن أكبر معنى بأقل عدد وأصح الكلمات.

إن مبحث التقديم والتأخير من أكثر المباحث البلاغية والدلالية التي نالت اهتمام علماء المعاني والمفسرين، ذلك الاهتمام الذي تجلى في رصدهم لصور التقديم والتأخير المتعددة في القرآن الكريم، وما تؤديه كل صورة من قيمة دلالية تفسيرية مضافة إلى المعنى الأساسي.

والقرآنالكريم هو كلامالله المعجز للخلق، في أسلوبه، ونظمه، وفي روعته، وجماليته البيانية، وقد اجمع أهل العربية على أن القرآن معجز بذاته، لفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وقوة أسلوبه، الذي لا يشابهه أسلوب آخر من نثر و شعر؛ واسلوب التقديم والتأخير من مظاهر إعجاز القرآن، فعندما ننظر في أجزاء الآية، ونتأمل الجزء الذي قدم فيها، نراه أنه أهم الأجزاء فيها، ولم يقدم الأ لكونه هو الأهم من جهة، أو له معني أنيق و عميق إضافةً الي دلالة مفرداته. وهو موضع عناية الناس و اهتمامهم، فالعناية والاهتمام أصل كل تقديم، ثم إن تقديم اللفظ وتحويله من مكان إلى آخر، يغير معنى الآية وهذا لايكون عبثا أو جزافا في القرآنالكريم، وإنما يكون وفق أسس وضوابط وإغراض يقصدها المتكلم الحكيم، الخبير بطرق الكلام، البصير بالأساليب، فيقدم ويؤخر عن خبرة وبصيرة وحكمة.

وحين تناولنا هذا الموضوع، كنا على علم بان عددا من الباحثين قد سبقونا إلى تناول هذا الموضوع، وقد وقفنا عند وجهاءنا نظرهم وآراءهم في بعض المباحث، واستفدنا منها، ومع ذلك أصبحنا لدي رغبة في تناول هذا الموضوع من زاوية أخرى، و كلي ثقة في أن نقدم شيئا جديدا لم يصل إليه الباحثون قبلنا، وانا لنرجوا أن نكون قد حققنا بعض ما تطلعنا إليه في كتابة هذا البحث المتواضع والموضوع الشيق والجميل.

وقد ساعد البحث الذي استهدف مقاصد العرض والتأخير وطرق التعبير عنه في القرآن الكريم على فهم معانيه وجماله، وبيان سبب الاختلاف في بعض تفاسير القرآن الكريم، وتحديد أسبابه أفضل استخدامات التقديم والتأخير و تناولنا في هذا البحث التقديم والتأخير لغة واصطلاحا، وأسباب وبواعث التقديم والتأخير في بلاغة بعض الآيات الكريمة، وبعد ذلك بحثنا تقديم وتأخير الأسماء

المزدوجة في القرآنالكريم، كتقديم وتأخير الجن والإنس، والسموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وغيرها من الأسماء المزدوجة، و ناقشنا في سبب التقديم فيه. ثم ختمنا بخاتمة ذكرنا فيها بعض نتائج البحث.

أسئلة الدراسة

١. ماهي مكانة التقديم و التأخير في اللغة العربية و لاسيما في المصحفالكريم؟
٢. ماهي البواعث و الأسباب في التقديم والتأخير؟
٣. ما هو شأن التقديم و التأخير في مفردات القرآنالكريم؟

خلفية البحث

القرآن الكريم أس الإسلام و شريعته؛ و السنة تنبثق منه و الأحكام تصدر عنهما. فعلي العلماء المسلمين أن يحيطوا علي أغراض القرآن- ما استطاعوا- حتي يحصلوا عَلىٰ أحكامه حقاً.

بحث العلماء عبر القرون حول موضوعات عديدة في القرآن و الّفوا كتباً فيه. و التقديم والتأخير في القرآن إحدي المباحث الدخيلة في التفسير. و نجد هذا الموضوع في الكتب التفسيرية و البلاغية و النحوية. و نحن أصحاب حصّة من بعضها في هذا المقال؛ نحو: الميزان، الكشاف، الكتاب و دلائل الإعجاز و ....

والنظر إلى الخلفيات المجمعة في مجال التقديم والتأخير يدل على أنه في اللغة الفارسية كتب ومقالات مثل «بررسى مسأله تقديم و تأخير در قرآن» تأليف مليحه پورستار مهادى، «جملهشناسى قرآن با تكيه بر تقديم و تأخير عبارات» تأليف على اكبر توحيدلو؛ رساله دكترى «بررسى تحليلى مسأله تقديم و تأخير در قرآن كريم» محمدحسين قاسمپيوندى، نگرشى جامع به گونهشناسى تقديم و تأخير لفظى در قرآن نصيرالدين جوادى، ترجمه و تحقيق بلاغه التقديم و التاخير في القرآن الكريم جلد (١) پديد آورنده ابوبكر يوسفي لاجى وأيضا في اللغة العربية "أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم" للسيد شيخون "الآثار "التقديم والتأخير في القرآن الكريم" لمنير محمود المصري، "التقديم والتأخير في القرآن الكريم" حميد أحمد العامري "التقديم و التأخير في محرمات النكاح في القرآن الكريم دراسة دلالية جمالية نويسنده: غازى حسين، تومان ؛ كاظم حميدى" خالد دخل مجال الكتابة. وقد

تناول في هذه المؤلفات عموماً موضـــوعات التقديم والتأخير، ولم يذكر التقديم والتأخير في الأسماء المزدوجة ودورها في معاني الآيات. ولذلك فمن المهم أن نميز هذا البحث عن الأبحاث الأخرى.

مفهوم التقديم والتأخير

التقديم لغةً

قال الخليلبن أحمد الفراهيدي: «القدمة والقدم» الســـابقةُ في الأمر، ومنه قولهتعالى: ﴿**وبشـــر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صـــدقٍ عند ربهم**﴾ (يونس/٢) أي سـبق لهم عند الله خير. وقَدم فلان قومه أي يكون إمامهم، والقِدَم المضـي أمام، أي يمضـي قدماً ولا ينثني، ورجلٌ قُدُمٌ مقتحم للأشـياء يتقدم ويمضـي في الحرب قُدُماً (الفراهيدي، ١٩٨٦م: ١٢٢/٥).

وأقدَمَ بمعنى تقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة والإقدام في الحرب (الزمخشـــري، ١٩٧٣م: ٢٣٤-٢٣٥). وقال ابنمنظور: القَدَم والقُدْمةُ: الســـابقة في الأمر وتقدم كقدم، وقدم واســـتقدم: تقدم أخرته فتأخر، واســـتأخر كتأخر، ومنه قولهتعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْـــتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ**﴾ (الحجر/٤)، والآخر: خلاف الأول، ويقال: لا مرحباً بالآخر، أي: بالأبعد. وقال أيضاً: التقديم من فعل قدم أي وضعه أمام غيره وفي أسماء الله تعالى المقدم هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في مواضعها فمن استحق التقديم قدمه (ابنمنظور، ١٩٩٢م: ٣٥٥٢/٥-٣٥٥٦).

وأيضـــاً التقديم هو أقدم على الأمر شـــجع، وأقدمته وقدمته، وتأخر وآخر تأخيراً واســـتأخر. (الفيروزآبادي، ٢٠١٨م: ٣٧٩/١). وأما ابنفارس فيرى أن «القاف والدال والميم أصل صحيح يدل على ســـبق و ... ثم يُفرع منه ما يقاربه ويقولون: القدم خلاف الحدوث ويقال شـــي قديم إذا كان زمانه سابقاً، وأصله قولهم: مضى فلان قُدُماً، لم يعرج ولم ينثنِ» (ابنفارس، ١٤١٦ق: ٦٥).

التأخير لغةً

قال ابنمنظور التأخير: «من الفعل أخّر هو نقيض قدّم والمؤخر هو الذي يؤخر الأشـياء فيضـعها في موضعها والتأخير ضد التقديم، ومؤخر كل شي بالتشديد خلاف مقدمه» (ابنمنظور، ١٩٩٢م: ١٢/٤). وقال الفيروزآبادي: «الأُخُر: بضمتين ضد القُدُم وتأخر وأخر تأخيراً استأخر وأخرته لازم متعدٍ، وآخرة العين مؤخرتها» (الفيروزآبادي، ٢٠١٨م: ٣٧٦/١). وأما قول الزمخشـــري في «آخر: جاءوا على آخرهم.

والنهار يحد عني أخر فأخر، ومضـــى قدماً وتأخر أُخُراً، وجاءوا في أخريات الناس، ولا أكلمه آخر الدهر» (الزمخشري، ١٩٧٣م: ١٣).

التقديم والتأخير اصطلاحاً

التقديم والتأخير في اللغة متناقضـان، حيث يعني الأول وضـع الشـي أمام غيره، وقد كان خلفه، ويعني الثاني وضع الشي خلف غيره وقد كان أمامه، وبالمعنى نفسه انتقل هذا المبحث من الوضع اللغوي إلى الدلالة الاصطلاحية أو المعنى الاصطلاحي.

اعتاد العرب على تقديم ما حقه التأخير لفضل دلالةٍ وبتمام معنى، وتأخير ما حقه التقديم للغرض ذاته، وذلك «يجعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص، أو أهمية أو ضرورة» (البغدادي، ١٩٧٧م: ١٨٩).و أيضاً أنهم يقدمون الشيء الذي شأنه أهم، وهم به أعنى، وإن كانا جميعاً مهمين» (السـيبويه، ١٩٩١م: ١/١٥). ويقول الدكتور عون: «قلما نجد تصـريحا لعلماء العربية بتعريف مصطلح التقديم والتأخير، ولعل ذلك راجع إلى وضوح المصطلح وشدة اتصاله بالمعنى اللغوي» (عون، ١٤٢٩ق: ١/٤٣).

وللتقديم والتأخير أهمية عظيمة في كلام العرب، هو باب كثير الفوائد حجم المحاســن واســع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويفضي لك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويطلف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك و اللطف عندك أن قدم فيه شي وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان (الجرجاني، ١٩٩٩م: ٨٣).

بواعث وأسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم

إن أســباب وبواعث التقديم والتأخير في القرآن الكريم كثيرة، ومتداخلة في ما بينها، وقد ذكر كثير من الباحثين عدة بواعث وأسباب للتقديم والتأخير، و قسّمته في القرآن عَلىٰ النوعين تقسيماً رييسياً:

التقديم و التأخير في البلاغة

و هذا الموضـوع يدور حول تقديم بعض الأركان أو الأجزاء بعضـاً في الجمله، لغرضٍ هامٍّ عند المتكلم؛ وفق اقتضـــاء الكلام. فمثلاً نقدّم المفعول عَلىٰ الفاعل تارةً أو متعلّقات الفعل عليه أخري. و وصـــل العلماء الي أكثر من ثلاثين ســـبب التقديم و باعثه في علم البلاغة. و أما أنا فســـوف أقتصـــر على

البواعث والأسباب التي تُعنى بها دراستي، وابتعد عن البواعث والأسباب التي لا مساس لها بالموضوع ومن هذا البواعث التي احتاجها في دراستي هي:

١. **التقديم والتأخير بحسب الاختصاص:** ومن أمثلة هذا التقديم والتأخير قوله‌تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ (البقره/٤٠). وفي هذه الآية تقدم المفعول على الفعل. لأنه ينبغي أن تخاف الله عز وجل لعظمته وجبروته. ولذلك فإن أعظم خوف الإنسان هو من الله عز وجل. وقوله‌تعالى: ﴿**مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ**﴾ (يونس/٢٨)، أي أنه في القيامة يكون للأصنام عقل وكلام، فينكرون أصنامهم أو يعلنون جهلهم، لذلك عليك أن تخاف من غضب الله

٢. **التقديم بحسب التقدم الزماني:** كقوله‌تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ (آل‌عمران/٣-٤) فتقديم التوراة على الإنجيل هو تقديم زماني، وكذلك تقديم الإنجيل على القرآن لأن القرآن متأخر زماناً عن الإنجيل. و ايضاً قوله‌تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا**﴾ (الحج/٧٧) فقدم الركوع على السجود لأنَّ زمان اتيانه في الصلاة متقدم عليه. وكذلك قوله‌تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ (المائدة/٦)، وقوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...**﴾ (آل‌عمران/٦٨)، فالنبي الأكرم محمد(ص) أفضل من أتبع النبي ابراهيم الخليل(ع) ولكنهم قدموا عليه لوجودهم قبله(ص) زماناً.

٣. **التقديم والتأخير بحسب الاستدراج:** كما في قوله‌تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ (النساء/٣) ففي الآية ترقي من العدد اثنين إلى الثلاث إلى الأربع، فقدم الاثنين على الثلاث والثلاث على الأربع. وكما في قوله‌تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (المجادلة/٧). وفي هذه الآية أيضاً يسبق ثلاثة في أربعة، وأربعة في خمسة، وخمسة في ستة، ادنى عَلىٰ أكثر.

٤. **التقديم والتأخير بحسب السياق والمقام:** سياق الآيات، العلاقة بين آيات القرآن بشكل عام أو العلاقة الفكرية أو الحسية أو الخيالية الخاصة أو غيرها من أنواع العلاقة، أهم الأدلة ما يدل على صدق المعنى وتوافقه مع السابق وانسجامه بالمعنى المقصود. بمعنى آخر، السياق هو البناء

العام الذي يربط بين أجزاء الكلمة المختلفة ويجعلها متصلة ومتصلة ومتناسبة مع بعضها البعض ويؤدي إلى ظهور المعنى. سياق الآيات يتكون من جزئين. أولاً: من الزاوية الخارجية، وهو ما يعرف بالسياق الخارجي، وهو خارج الكلمة المستخدمة، ويكون له تأثير في تحديد المعنى. والآخر من الزاوية الداخلية والتي تعرف بالسياق الداخلي وهو المعنى والقياس الذي ينشأ من داخل الكلمة وهو نتاج الترتيب الطبيعي للكلمة ويتضمن سياق الكلمات والجمل والآيات كقولهتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الانبياء/٩١)، فالسياق كان في ذكر مريم (عليهاالسلام)، في قولهتعالى: ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾، وقدّم ابنها عيسى(ع) في موضع آخر، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً**﴾ (المؤمنون/٥٠)، فالسياق هنا هو الذي يوضح لنا سبب التقديم والتأخير. ومنه قولهتعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ (البقرة/٢٤٥)، قدم سبحانه القبض على البسط، لأن سياق الآية يناسب التقديم، فإن السياق في نفس الآية فيه ترغيب بالإنفاق، قالتعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾، فان القبض مقدر لامحال.

٥. **التقديم والتأخير حسب الكثرة والغلبة:** كما في قولهتعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (المائدة/٣٨) فقدم السارق على السارقة، لأن السرقة في الذكور أكثر من الإناث. وقولهتعالى: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾ (التغابن/١٥) قدمت الأموال على الأولاد لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد. وأيضاً في قولهتعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ (الكهف/٤٦) (آلعمران/١٤) وقولهتعالى: ﴿**الزانية والزاني**﴾ (النور/٢) فقدم الزانية وهي المرأة لأنها مدعاة للريبة وهي الطريق إلى جذب الرجل. و أيضا تقديم البنين على المال في آية ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ وحينما يكون السياق عن الحب والمحبة يقدم الولد على المال لأنه الأحب إلى الرجل –كما ذكرت في سؤالك– ولذلك تجد تقديمه على المال

٦. **التقديم والتأخير بحسب الشرف والرتبة:** كقولهتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ (النساء/٥٩) فتقديم طاعة الله عزوجل على طاعة الرسول وأولى الأمر هو بحسب الشرف والرتبة؛ لأنّ إطاعة اله بالأصالة و إطاعة النبي بالتّبع. وقولهتعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ (الحج/٥٢)

فالرسول أفضل وأشرف من النبي. و فضله عَلىٰ النبي برسالته خاصةً. لأن النبي ليس إلاّ مبلّغ ملة الرسول السابق وما له رسالة جديدة.

٧. **التقديم والتأخير بحسب السبب والمسبب:** كقوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ (البقرة/٢٢٢) فقُدمت التوبة على الطهارة لأن التوبة هي سبب الطهارة. وقوله‌تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾ (الفرقان/٤٨-٤٩) فقدم ذكر البلدة الميتة لأن في حياتها حياة الأنعام، فمن نباتها تأكل وتنمو، وقدم الأنعام على الأناسي، لأن في حياة الأنعام حياة هؤلاء.

٨. **التقديم والتأخير بحسب الأحكام الشرعية:** كقوله‌تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ (البقرة/١٦٩) فقدم الصيام على الصدقة والصدقة على النسك. لأن الصيام في شهره حكم رييسي و إن لم يستطع العبد فعليه الصدقه ثمّ الاستغفار. وقوله‌تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾ (المجادلة/٣، ٤) وكما في بعض الآيات تقديم الصلاة على الزكاة وغيرها. وهناك بواعث وأسباب بلاغية أخرى؛ و في هذا القسم اكتفينا بما أشير.

التقديم و التأخير في المفردات

كثيراً ما نجد في القرآن، أسماء نظيرة تقدّم بعضها بعضاً. و هي كالجن و الإنس، و الليل و النهار، و السموات و الأرض و... وتقدم إحداهما تارةً و تؤخّر أخري؛ و هذا بالنسبة الي السياق و القرينة. و ناقشنا هنا في بعض الأسماء المزدوجة وفق المجال. فالإبتداء بالجن والإنس:

الجن والإنس

ورد في كثير من الآيات القرآنية ذكر للجن والإنس وقد جاءا مختلفين وعلى غير النسق، مرة يتقدم الإنس على الجن في بعض الآيات، ومرة أخرى يتقدم الجن على الإنس، وذلك تبعاً لما يقتضيه السياق والمعنى، وكان تقديم الجن أكثر من تقديم الإنس في بعض الآيات وقد اختُلِفَ في سبب ذلك التقديم، حتى قال بعضهم: «قدم الإنس في بعض الآيات لشرفه وقدم الجن في بعضها الآخر لأنهم أقدم خلقاً أو لأن خلقهم أعجب وأغرب، أو لأنهم أقوى أجساماً وأعظم إقداما» (العارضي، ٢٠١٢م: ١٨٦).

وفي الحقيقة أن السياق هو الحاكم في توجيه هذا التقديم والتأخير، فحينما يرد احدهما مقدمٌ على الآخر ينظر إلى سياق الآية التي وردا فيها، ففي قولهتعالى: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ (الجن/٥)، فالوجه في تقديم الإنس هنا هو أن هذا القول حكاية كلام مؤمني الجن حينما سمعوا آيات من القرآن الكريم، و أول من خوطب بالقرآن هم الإنس، ونزل القرآن على نبيهم، وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن بالابتداء بذكر الإنس، لتقدمهم في الخطاب بالقرآن، وتقدمهم في التصديق والتكذيب وكذلك فإن الجن قالوا هذا القول لقومهم بعد أن رجعوا فتقديمهم للإنس أحسن في الدعوى وأبلغ في عدم التهمة، حتى لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم

فمن سياق الآية السابقة عرفنا أن تقديم الإنس هنا هو أن هذا القول قول مؤمني الجن واعترافهم بأنهم ظنوا أن الإنس والجن صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله، فلما وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى الصاحبة والولد أذعنوا به وقلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجن (الطباطبايي، ١٤١٨ق: ٤١/٢٠).

لعل هذا الكلام (أي كلام الجن) إشارة إلى التقليد الأعمى للغير (مكارمالشيرازي، ١٤٣٢ق: ٨٢/١٩). وقولهتعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ**...﴾ (الانعام/١١٢)، فإن هذه الآية القرآنية جاءت لتسلية النبي(ص) على شدة عداوة قريش، فكان الأولى أن الإنس لأن أشد ما لقيه الأنبياء(ع) كان من الإنس.

كما جعلنا لك شياطين الإنس والجن أعداء كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأممهم (الطبرسي، ١٤٠١ق: ٥٤٤/٤). وأما تقديم الإنس على الجن في قولهتعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (الاسراء/٨٨)، ففي هذه الآية تحدٍّ وإعجاز للثقلين على الإتيان بشبيه للقرآن الكريم، فتقديم الإنس هنا مناسب لأن القرآن نزل بلسانهم ولغتهم وهم أهل الفصاحة والبيان والنبي(ص) كان منهم.

ويقول أبوحيان: «ويحتمل أن يكون ذكر الجن هنا لأن النبي (ص) بعث إلى الإنس والجن فوقع التعجيز للثقلين معاً لذلك» (الاندلسي، ١٤١٨ق: ١٠٩/٧). معناه يا محمد، قل لهؤلاء الكفار: إذا تعاونت الجن والإنس على الإتيان بمثل هذا القرآن –من حيث الفصاحة، البلاغة والنظام– على وجه مساوي له من كل وجه، وخالي من التناقض. كلام غني إذا لم يستطع السامعون التمييز بينهم فشلوا.

ويحتمل أن يكون ذكر الجن في هذه الآية هو لأجل التعميم لدفع الإشكال الذي يرد من المتحدين بإعجاز القرآن بأنهم كانوا يظنون أن الجن قادر على الإتيان بمثله، فجاء الجواب بهذه الآية، فهذه الآية ونظيراتها فيها دلالة على إعجاز القرآن الكريم وتحدٍّ لكل بلغاء العرب وكل العالم وأيضاً تحدٍّ للجن والإنس عموماً، وهذا التحدي ساري المفعول إلى يومنا هذا.

أما في الآيات التي قدم فيها الجن على الإنس كما في قوله‌تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات/٥٦) فيرى البعض أن «الوجه في تقديم الجن على الإنس هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية، وعبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء، وعبادة الإنس جهرية يدخلها الرياء» (خليل‌ياسين، ١٤١٣ق: ٢/٢٢٤) وهذا التوجيه جميل ولكن البعض لا يرتضيه، ويقول: «فقد حملت الآية جملة خبرية مقتضاها أن خلق الجن والإنس هو من أجل عبادة الله وحده، فابتدأ بذكر الجن لسبقتهم في الخلق» (حسن‌عباس، ٢٠٠٩م: ٢١٢). وجهة نظر الباحث هي ذلك يمكن اعتبار تقدم الجن على الإنس هو سبب خلقهم قبل خلق آدم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ**﴾ (الحجر/٢٧)

وفي قوله‌تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**﴾ (الانعام/١٣٠) فقدم ذكر الجن في هذه الآية لأنهم كانوا السبب في إغواء الإنس، فالخطاب واقع في يوم الحشر، وهذا الخطاب موجه إلى الجن على سبيل التبكيت على ما فعلوه من الاستكثار من الإنس وإغوائهم.

ولمزيد من التحقير حذف فعل القول أو النداء، والتقدير: ويوم نحشرهم جميعاً فينادى عليهم، أو يقال لهم، وما قيل هذه الآية يؤكد هذا المعنى (العارضي، ٢٠١٢م: ١٨٩). وقيل أن الابتداء بالجن لغلبتهم أو أن السياق يبين الغلبة والكثرة في الإغواء كما في قوله‌تعالى: ﴿**أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**﴾ (فصلت/٢٩)' ففي هذه الآية ابتدأ الكافرون بطلب رؤية الجن، لأنهم كانوا سبباً لإغوائهم. وهذا يدل على تقديم الجنة على الناس عند الاستعاذة كما في قوله‌تعالى: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ**﴾ (الناس/٦) لعل شرور الجن في الإغواء أكثر من الإنس.

وقوله‌تعالى: ﴿**فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**﴾ (الاعراف/٣٨؛ فصلت/٢٥؛ الاحقاف/١٨)، فكان الابتداء بالجن لأن سياق الحديث عن الأمم الخالية. فابتدأ بهم لتقدمهم في الخلق وكذلك لأنهم أصل في الإغواء (البقاعي، ١٤١٣ق: ٧/٢٧١). وأما في قوله‌تعالى: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ (النمل/١٧)، فهنا أيضاً قدم الجن على الإنس ويقول الزركشي: «فابتدأ بالجن لقوتهم، أو لأن أمرهم أعجب» (الزركشي، ١٤١٢ق: ٣/١٦٤). وأيضاً في

قوله‌تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا**﴾ (الرحمن/٣٩)، فالابتداء بالجن لأنهم الأقوى والأقدر على الصعود إلى السماء وهو أليق بهم إن استطاعوا ذلك (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٢٩/١١٤).

أما في قوله‌تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ**﴾ (الرحمن/٣٩)، فهنا السياق استدعى أن يتقدم الإنس على الجان لأن الله تعالى ابتدأ بذكر خلق الإنسان قبل ذكر خلق الجان في الآيات السابقة على هذه الآية، فقال‌تعالى: ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ۝وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**﴾ (الرحمن/١٤-١٥)؛ بل ابتدأ خلق الإنسان من أول السورة، فقال تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ۝عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝خَلَقَ الْإِنْسَانَ**﴾ (الرحمن/١-٣)، فهناك من يقول أن تقديم الإنس على الجان في هذه الآية هو مراعاة للتواصل القرآنية، التي تنتهي بالألف و النون، وهذا ما يراه الكبيسي إذ يقول: «إنه من أجل اتساق النظم والحفاظ على الجرس» (الكبيسي، ١٤١٥ق: ٧٦).

ولكن الدكتور ألمسيري يرى أن تقديم الأشياء في القرآن لا يأتي من أجل تناسق التواصل في الآيات، فالله تعالى «نزه القرآن أن يكون شعراً، وحاشاه أن يقدم أو يؤخر من أجل الحفاظ على الجرس، فسبحانه من لا يعجزه شي قادر على أن يأتي بهذا الجرس من غير هذا التقديم» (المسيري، ١٤٢٦ق: ٦٣٣) ولكن القرآن الكريم راعى ما يتطلبه ويقتضيه المعنى، ولم يفعل ذلك حرصاً على الانسجام الموسيقي وحده.

السموات والارض

ورد لفظ السماوات ولفظ الأرض في كثير من الآيات القرآنية وقد اختلف الترتيب بينهما حيث تقدمت السماوات على الأرض في أكثر المواضع، وقدم لفظ الأرض على السموات في بعض المواضع، وقد ورد لفظ السموات مرة مفرداً بلفظ (سماء) وأخرى جمع (سموات) بينما لم ترد (الأرض) إلا بلفظ المفرد. ففي قوله‌تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۝الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾ (البقرة/٢١-٢٢)، فقدم ذكر الأرض على السماء لأنها أقرب إلى النظر والتأمل، فيها المستقر والمعاش والفراش. وسياق الآية يدل على عبادة الله وحده وشكره على نعمته التي أنعمها على الناس فكان التقديم للأرض هو الأنسب. وفي قوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ (آل‌عمران/٥)، فتقديم الأرض هنا إظهاراً

للاعتناء بشأن أحوال أهلها واهتماماً بما يشير إلى وعيد ذوي الضلالة منهم، وليكون ذكر السماء بعد من باب العروج، قيل ولذا وُسّط حرف النفي بينهما (الآلوسي، ۲۰۰۵م: ۷۸/۳).

ويرى الزمخشري أنه تعالى قدم في الآية السابقة موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له، خلفهم أحياء قادرين أولاً، لأنه سابقةُ أصول النعم ومقدمتها، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرها، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومقلبه ومفترشه، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار، ثم ما أنعم به عز وجل من إنزال الماء من السماء إلى الأرض وأخرج من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم (الزمخشري، ۱۹۷۳م: ۸۸/۱).

وهناك من يرى أن تقديم الأرض على السماء ليس على أساس الأفضلية وإنما هو تقديم وجودي، أي أن خلق الأرض قبل خلق السماء، إذ الأرض موجودة قبل السماء. ويستدل على ذلك بقوله‌تعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ۝وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ۝ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت/۹-۱۱) وأما في قوله‌تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة/۲۹)، فظاهر الآية في قوله﴿**ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ**﴾ أنه تعالى خلق الأرض قبل السماء لأن (ثم) تدل على التراخي والترتيب، غير أن هذا يعارض بقوله‌تعالى: ﴿**وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ**﴾ (النازعات/۳۰)

ويوفق بين الآيتين بأن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء غير أنه لم يدحُها، فلما خلق السماء دحاها بعد ذلك ودحوها بسطها ومدها (خليل‌ياسين، ۱٤۱۳ق: ۳۹/۱). وفي قوله‌تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (يونس/٦١)' قال الزمخشري: «فإن قلت: لِمَ مُدّت الأرض على السماء؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (ولا يعزب عنه)، لاءَمَ ذلك أن قُدم الأرض على السماء» (الزمخشري، ۱۹۷۳م: ۳۷/۲).

توجيه جميل لهذا الكلام هو ذلک لأنها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض كما قال (ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا) فقدم ذكر الأرض تنبيهاً على ذلك لما كان له من اختصاص به»

(العلوي، ١٩٩٥م: ٤٢/٢)، أو كما يقول الزركشي أن يكون ذلك التقديم انتقالاً من الأقرب إلى الأبعد (الزركشي، ١٤١٢ق: ١٨١/٣-١٨٢). ومن الآيات التي تقدم لفظ الأرض فيها على السماء قوله‌تعالى: ﴿**تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ اَلْأَرْضَ وَ اَلسَّمٰاوٰاتِ اَلْعُلىٰ**﴾ (طه/٥)، قدم ذكر الأرض على السموات لأن الآية سيقت في مجال ذكر الرحمة بتنزيل الكتاب لأهل الأرض والترفق بهم، ثم اتبعها ذكر السموات. إنه تعالى بدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، «وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى» (البيضاوي، ١٤١٨ق: ٤١/٤).

وأما قوله‌تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**﴾ (سبأ/٢) يشير الفخر الرازي إلى أنه ذكر ما يلج في الأرض أولاً وألحق به ما ينزل من السماء، وذلك لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٢٤٠/٢٥-٢٤١)، والبذار يكون في الأرض والسقي يكون أكثره من السماء وهذا يعني أن التقديم والتأخير هنا زماني. وفي قوله‌تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ ۚ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا**﴾ (فاطر/٤٠)، فقدمت الأرض لأن الكلام في سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة، وأمر الأرض أسهل و أيسر من السماء بكثير، فكان الابتداء بالأرض مبالغة في بيان العجز.

قال الله‌تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (فاطر/٤١) فهنا كان التقديم للسموات والتأخير للأرض. وقدمت السموات على الأرض تنبيهاً على عظم قدرته سبحانه، لأن خلقها أكبر من خلق الأرض (الزركشي، ١٤١٢ق: ٢٨٥).

وأما في قوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة/١٦٤) فيرى أبوحيان الأندلسي أن مجيء السماء قبل الأرض هو لعظم خلق السماء أو لسبق خلق السماء على خلق الأرض (الاندلسي، ١٤١٨ق: ٧٧/٢).

ومما يتصل بهذا التقديم التأخير ويستوجب الوقف عنده ذكر خلق السموات والأرض سابقين على ذكر اختلاف الليل والنهار وكذلك لاحقين لهما. ومن هذه المواضع ما في قوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (آل‌عمران/١٩٠) وقد عكس هذا

التقديم والتأخير في قوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾ (يونس/٦) ففي سورة آل‌عمران لما قال‌تعالى: ﴿**وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (آل‌عمران/١٨٩) اتبعه بذكر خلق الســـموات والأرض ومن ثم ذكر اختلاف الليل والنهار، وأما في ســورة يونس فقد ذكر قبلها قوله‌تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّـمْسَ ضِـيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (يونس/٥)، إن معرفة عدد السنين والحساب إنما يكون باختلاف الليل والنهار، فناسب ذلك أن يتبعه باختلاف الليل والنهار. وهذا الإزاحة المكانية تعتمد على السياق أو السياق، ولها معنى خاص في كل منهما. ولهذا السـبب تتكرر الآية عدة مرات بنفس الكلمات، ولكن عندما توضـع في سـياق جديد يتغير ترتيبها وبنيتها ويحدث اختلاف في المعنى.

الليل والنهار

ورد لفظ الليل والنهار في كثير من الآيات القرآنية وقد تقدم الليل في مواضـــع على النهار وبالعكس تقدم النهار على الليل. ولكن الليل كان متصـدراً على النهار في أكثر المواضـع. ففي قوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**﴾ (البقرة/١٦٤) وقد ذكرت في ســبب تقديم الليل والنهار علتان، إحداهما: أن الليل أشـــرف من النهار (الآلوســي، ٢٠٠٥م: ٣١/٢)، والعلة الأخرى: هي أن الليل ســابق للنهار (الزركشــي، ١٤١٢ق: ١٤٥)، ويحتمل أن يكون شــرف الليل على النهار هو بســبب مشــقة العبادة بالليل لأن المصــلي يترك النوم والراحة، والشــرف ليس للوقت وإنما لأجل الأعمال التي تحصــل فيه، فالليل بالعبادة أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء. ولأجل هذا جاء الليل والنهار في معرض الثناء على المنفقين مقابلين بالسر والعلن في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِـرًّا وَعَلَانِيَةً**﴾ (البقرة/٢٧٤)، قال الالوســي: «وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار» (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٤٧/٢).

وأما علة السبق الزمني أي أن الليل سابق النهار فهذا الأمر عرفي، كان العرف عند العرب أن الليل ســابق على النهار، وقد يكون هذا الســبب راجحاً لهذا التقديم. يقول الفخر الرازي: «الظلمة طبيعة عدمية، والنور طبيعة وجودية. والعدم في المحدثات مقدم على الوجود» (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٨٣/٢٧). ويدل على هذا قوله‌تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ (الانعام/١) أو ربما لأن النهار إنما ينســـلخ من الليل كما دل على ذلك قوله‌تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْـــلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ (يس/٣٧)،

وقد عرفنا اليوم من العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل جانب وإن الجزء الذي تكون فيه حالة النهار هو الهواء الجوي الذي يحيط بالأرض، ويمثل قشـرة رقيقة تشـبه الجلد، وإذا دارت الأرض سلخت منه حالة النهار الرقيقة التي كانت ناشئة بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزئيات الموجودة في الهواء، وهو مما يسبب النهار فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل.

وقد اختلف التقديم والتأخير في قوله‌تعالى: ﴿ **وَالشَّـمْسِ وَضُـحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَـاهَا**﴾ (الشـمس/١-٤) فهنا قدمت جملة النهار على جملة الليل وهذا خلاف التقديم والتأخير في قوله‌تعالى: ﴿**والليل إذا يغشى۝والنهار إذا تجلى۝وما خلق الذكر والأنثى۝إن سعيكم لشتى**﴾ (الليل/١-٤). فالتقديم الذي ورد في سورة الشمس هو تقديم وتأخير حسي يتناسب مع قوله‌تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا۝وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ (الشمس/٩-١٠) لأن التزكية هي التطهير والانكشاف والدس هو إدخال الشيء في شيء آخر بالإكراه والإرغام. وهناك تقابل وتناظر حسي بين هذه الآيات والآيات السابقة لها أما التقديم والتأخير في سورة الليل فهو يتناسب والسياق والمقام أيضـاً. يقول ابن القيم: «قابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسـطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسـطة الأجرام السـفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعه، كما أخرج من السـماء الليل والنهار بواسطة الشـمس فيها» (بنت‌الشاطي، ٢٠٠٤م: ١/٢٥). ويبدوا أن تقدم الليل على النهار كان ليتناسب مع تقدم الذكر على الأنثى، فالليل أصل ويدل على ذلك قوله‌تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ (يس/٣٧)، وأيضاً الذكر أصل ويدل على ذلك قوله‌تعالى: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (النسـاء/١)، وهناك كان تصـدر الأصـلان (الليل والذكر) على الفرعين (النهار والأنثى) مناسبة وانسجاماً.

الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَـمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (لقمان/٢٩). اجتمع لفظ الشـمس والقمر في كثير من الآيات القرآنية، وقد قُدمَ لفظ الشمس على القمر في أكثر من المواضع، وقدم لفظ القمر في موضعين فقط، ومن مواضـع تقديم الشـمس على القمر قوله‌تعالى: ﴿... **وَسَـخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّـمْسَ وَٱلْقَمَرَ**...﴾.

فكان الابتداء بذكر الشمس قبل القمر، ومع تقدم الليل في بداية الآية على النهار، والسلطان في الليل هو القمر، والشمس هي سلطان النهار.

فيعلل الفخر الرازي ذلك: «إن الابتداء بالليل كان لأن النفس تطلب بسببه أكثر مما تطلب بسبب النهار، أو لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون أعجب منه» (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٢٥/١٦١). ومما قدم فيه لفظ الشمس على القمر في قوله‌تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ (يوسف/٤)، فتقديم الشمس على القمر هنا لكبر حجم الشمس وسطوع نورها، وتقديم الأشياء في هذه الرؤيا ملاحظ فيه الترقي، والشمس والقمر— وإن كانا من جملة الكواكب— لكنهما أُفردا هنا لمزيد من الفضل والشرف (الاندلسي، ١٤١٨ق: ٦: ٢٣٨).

قول الفخرالرازي في جواب من يسأل: «لِمَ أخر الشمس والقمر؟ قلنا: أخرهما لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف» (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ١٨/٨٩). والابتداء بالشمس قبل القمر لأن ظهور الشمس أكثر من ظهور القمر الذي يختفي محاقاً، ثم يظهر هلالاً غير مرئي، بينما الشمس ظاهرة على الدوام، بمعنى أن الناس في أكثر الأوقات يرونها، فالنهار الذي تسببه معاش ويقظة لهم، وأما في الليل فلا يرى القمر إلا القليل من الناس، من حيث إنه قد يظهر متأخراً أو أنهم يغطون عنه في النوم (المسيري، ١٤٢٦ق: ٤٩٢).

ومن الآيات التي قدم فيها القمر على الشمس ما جاء في قوله‌تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴿٧٦﴾فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴿٧٧﴾فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ (الانعام/٧٦-٧٨). فالتقديم هنا بمقتضى سياق الآيات، حيث أنها تنقل لنا محاججة إبراهيم(ع) مع قومه وتلطفه بهم من أجل إنقاذهم من ضلالة الشرك، فكان(ع) يستدرجهم بالدليل العقلي الحسي ويقرب لهم الحقيقة بما تدركه عقولهم، فتراه يُعرّضُ بضلالهم في مسألة القمر، كما عرض بهم في مسألة الكواكب، فأخر الشمس لأجل إقناعهم وإلقاء الحجة عليهم لأن الشمس أكبر وأعظم من الكواكب والقمر.

الآيات في الحقيقة مصداق كامل من القيام بدين الفطرة والانتهاض لنشر عقيدة التوحيد والتنزيه عن شرك الوثنية «وهو الذي انتهض له إبراهيم(ع) والتابعون له من ذريته الأنبياء من طريقة التوحيد» (الطباطبايي، ١٤١٨ق: ٧/١٥٤)، ومنه قوله‌تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾

(نوح/١٦)، فجملة القمر هنا تقدمت على جملة الشمس، وعزا بعضهم هذا التقديم إلى موافقة الفاصلة في كلمة (سراجاً) مع (فجاجاً) وغيرها من الفواصل (الكبيسي، ١٤١٥ق: ٩٣). واعترض على هذا التوجيه ألمسيري، وقال لو كان هذا التقديم معكوساً، أي ابتدأ بجملة الشمس وانتهى بجملة القمر وكانت الفاصلة (نوراً) لتناسبت أيضاً مع الفواصل الأخرى: (نهاراً) و (قراراً) و (استكباراً) و (جهاراً) (المسيري، ١٤٢٦ق: ٤٩٢).

ولعل تقديم القمر هنا لسياق الآية حيث أن الآية السابقة تكلمت عن السموات وجعل القمر فيهن نوراً، وفي جواب سؤال يقول الرازي: «كيف قال (وجعل القمر فيهن نوراً) والقمر ليس فيها (أي السموات) بأسرها بل في السماء الدنيا؟ الجواب: هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيزٍ من جملة أحياز العراق فكذا هاهنا» (الفخرالرازي، ١٩٩٠م: ٣٠/٦٥٠).

الذكر والأنثي

من الموارد التي جاء فيها التقديم والتأخير هي لفظ الذكر والأنثى، فإنهما اقترنا في أربعة عشر موضعاً حيث تقدم لفظ (الذكر) على الأنثى في أكثر المواضع وقد تقدم لفظ الأنثى في موضع واحد.

ومن مواضع تقديم الذكر على الأنثى كما جاء في قولهتعالى: ﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى**﴾ (النجم/٢١)، وقولهتعالى: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**﴾ (النجم/٤٥)، وقولهتعالى: ﴿**لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى**﴾ (آلعمران/١٩٥). أن السبب في تقديم الذكر على الأنثى عائدٌ إلى أن الذكر أفضل من الأنثى.

ومما يستدلوا به على تفضيل الذكر على الأنثى قولهتعالى: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾ (النساء/١١)، فلما كان نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى تقرر أن يكون الأفضل، ولكن بعض المفسرين أرادوا أن يجبروا خواطر الإناث في توجيه مراد الشارع المقدس: «كأنه جعل إرث الأنثى مقرراً معروفاً، وأخبر أن للذكر مثله مرتين، أو جعله هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولاً عليه يعرف بالإضافة إليه، ولولا ذلك لقال: للأنثى مثل حظ الذكر» (رشيدرضا، ١٩٤٧م: ٤/٤٠٦)، ومثل هذا التوجيه وجبر الخواطر نجده عند ابن عاشور فهو يرى أنه جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولولا هذا لكان صالحاً أن يؤدي المعنى بنحو: للأنثى نصف حظ الذكر، أو

للأنثيين مثل حظ الذكر وكل ذلك من أجل ترسيخ أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهتضمة الحق في الجاهلية.

وهذه التوجيهات فيها جانب كبير من التلطف بحق الإناث، وفيه وجه من الصحة وقد نص القرآن الكريم في فضل الذكور على الإناث في كثير من المواضع. من جانب الوراثة والقيمومة والشهادة كما في قولهتعالى: ﴿**وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ (البقرة/۲۲۸)، وقال تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ**﴾ (البقرة/۲۸۲)، وقولهتعالى: ﴿**اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ (النساء/۳٤). وأفضلية الذكر على الأنثى أفضليةٌ وظيفية تكوينية، وهي لا تعني أن الذكر أفضل عبادة وتقوى وصلاحاً من الأنثى، قال‌تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات/۱۳)، وربما أساء بعض الرجال في تفسير القوامة أنها الهيمنة والتسلط على المرأة، وإنما القوامة في الرحابة والإدارة الحكيمة. أما الموضع الوحيد الذي جاء فيه لفظ (الإناث) مقدم على لفظ (الذكور) فهو قوله تعالى: ﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ**﴾ (الشورى/٤۹) أن الله عز وجل يسعى إلى أن تقع الخاتمة على خير وسرور وبهجة، فإذا وهبه الأنثى أولاً ثم وهبه الذكر ثانياً كان قد نقله من غم إلى فرح وهو أليق بالكرم، وفي هذا القول نظرة انحيازية للذكور وليس غريباً على المفسر وغيره ممن يذهبون إلى هذا الرأي فإنهم محكومون بظروف اجتماعية تقلل من شأن المرأة ولا يبعد عن هذا الرأي ما ذهب إليه الزركشي حيث يقول قدمت الإناث على الذكور هنا وذلك «لجبرهن، إذ هن في موضع انكسار» (الزركشي، ۱٤۱۲ق: ۱٦۱/۳). والظاهر من هذا التقديم هو تعريضاً بأهل الجاهلية الذين يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور وهذا الرأي يتناسب مع ما جاء في القرآن الكريم في قولهتعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ (النحل/٥).

موسى و هارون

ورد اسم موسى وهارون(ع) في القرآن مجتمعين في عشرة مواضع قدم فيها اسم موسى في تسعة مواضع، وقدم اسم هارون في موضع واحد. وقيل: إنهما حيث جاءا بترتيب معين فإن ذلك مراعاةً للفاصلة القرآنية (الزركشي، ۱٤۱۲ق: ۱٦۳/۳). غير أن هذا الكلام محل خلاف بين الكثيرين، فقد جاء (موسى) قبل (هارون) في أربعة مواضع من غير مراعاة للفاصلة، وفي خمسة منها مراعاة للفاصلة القرآنية وجيء بهارون قبل موسى في موضع الفاصلة، في قولهتعالى: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ (طه/۷۰)، إذ إن سورة (طه) تنتهي بفاصلة الألف ﴿**طه۝مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ**

الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ (طه/١-٣) والفاصلة تراعى كثيراً في القرآن الكريم بقصد تحسين الكلام مع الحفاظ على المعنى. وقد عقدّتُ لهذه القضية فصولاً في كتب إعجاز القرآن الكريم إذ إن الفاصلة حجة قوية عند الكثير في مراعاة القرآن، على نسق السجع حتى قيل: أي إعجاز في أن يقال مرة: (موسى وهارون) ومرةً أخرى (هارون وموسى)

فلا يكون وجود الفاصلة القرآنية على حساب المعنى. وهذا ما يذهب إليه الدكتور السامرائي إذ يقول: «إن القرآن الكريم لا يُعنى بالفاصلة على حساب المعنى، ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه فهو يختار الفاصلة مراعىً فيها كل الأمور التعبيرية والفنية، بل مراعىً فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه ... وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال» (السامرائي، ٢٠٠٦م: ٢١١). وقيل إن مجيء (موسى) قبل (هارون) في قولهتعالى: **﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾** ادخل في دفع توهم ان يكون فرعون هو المراد من قولهم (رب موسى وهارون) لأنهم لو اقتصروا على (رب موسى) لأوهم أنهم أرادوا (فرعون) لأنه ربّى موسى وهو صغير، فلما أردف بذكر هارون زال هذا التوهم، وقيل جيء بـ (موسى) أولاً لشرفه (الآلوسي، ٢٠٠٥م: ٢٦/٩).

أما الموضع الوحيد الذي قدم فيه (هارون) على موسى في سورة طه فقد قيلت في سبب هذا التقديم عدة أقوال، أهمها: أن هارون أكبر من موسى سنا فهو يكبره بـــ (ثلاث سنوات) (الآلوسي، ٢٠٠٥: ٢٦/٩). وقيل: إن هارون أفصح من موسى لساناً (الحسناوي، ١٤٠٥ق: ١١٩). وقيل أيضاً إنه قدم هارون لأنه ذكر كثيراً في سورة (طه) وأنه ذكر خوف موسى وهو ما أدى إلى أن يكون لاحقاً الذكر (السامرائي، ٢٠٠٦م: ٢١١)، ويعلل أحد الباحثين هذا الاختلاف في التقديم الذي جاء عليه (موسى) و (هارون) بما مقتضاه أن هذا الكلام من قول السحرة فهل يعني ذلك أن اللهتعالى حكى قولهم بلفظه ام بمعناه؟ فان كان بمعناه صح كل ما قيل من توجيهات، لأنه من التفنن في أساليب الكلام، وأما إن كان بلفظه فإنه يكون مشكلاً، لأنهم لا بد أن يكونوا ابتدأوا بأحدهم وانتهوا بآخر.

ويضم هذا الكلام إلى رأي آخر، هو أن السحرة حكوا أقوالاً عديدة، فقال بعضهم: (رب هارون وموسى) وقال الآخر: (رب موسى وهارون) وقال آخر: (رب العالمين) وهكذا اختلفت الأقوال وتباينت الأساليب، وجُهر في بعضها وخُفّت في بعضها الآخر، فكان الذي حكاه القرآن من أقوالهم هو الوجه الغالب فيها، وهذا يتفق وصدق القرآن وإعجازه (الخطيب، ١٩٦٤م: ٢١٩/٢). وقد عدّ

باحث آخر أن السبب في أقوال السحرة المتعددة هذه هو ظهور معجزة (موسى) وهو ما جعلهم يلقون سجداً متلعثمين. (الحسناوي، ١٤٠٥ق: ١٢٠)، فربما جرى اللفظان أي التقديم مرة والتأخير أخرى على لسانهم مرتين على غير هدى وبصيرة بسبب الذهول والرهبة من معجزة موسى.

الصابئون والنصارى

لقد ورد ذكر هاتين الطائفتين في القرآن في ثلاثة مواضع وقدم لفظ النصارى في موضع واحد على لفظ الصابئين. أما الموضعين الآخرين فقدم لفظ الصابئين، والصابئون "قوم كانوا على دين نوح، وقيل لكل خارج من الدين إلى دين آخر، صابئ من قولهم صبأ ناب البعير، إذا طلع، وقد تخفف همزته فيُقرأ (صابين) (الراغب، ٢٠٠٣م: ٨٩)، وهناك من عدّهم من المشركين، وقيل: إنهم مجوس، وليسوا مجوس، لأن القرآن ذكرهم إلى جانب المشركين والمجوس، إذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ (الحج/١٧).

وقد اختلف المفسرون وأصحاب الملل والنحل في تشخيص هويتهم ووجه تسميتهم، غير أن جل الباحثين لم يتفق على أصل التسمية هو من (صبأ) التي تعني الخروج، أي إنهم خرجوا من دين إلى دين آخر (السبزواري، ٢٠٠٣م: ٣٠٤/١)، أما النصارى فقيل سموا بذلك لقوله‌تعالى: ﴿**كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾ (الصف/١٤)، وقيل: «سموا بذلك انتساباً إلى قرية يقاله نصرانة، فيقال نصراني، وجمعه نصارى» (الراغب، ٢٠٠٣م: ٨٠٩).

الصابئون متقدمون في الزمان على النصارى، والنصارى هم أصحاب المسيح (ع)، وعلى هذا الأساس قدم الصابئون على النصارى في قوله‌تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى**...﴾ (الحج/١٧)، وقوله‌تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ**...﴾ (المائدة/٦٩)، وأما سر تقدم لفظ النصارى على لفظ الصابئين في قوله‌تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** ...﴾ (البقرة/٦٢)، فقدم لفظ النصارى على الصابئين لأنهم أشرف منهم لأن النصارى من أهل الكتاب والصابئون لا كتاب لهم كما ذهب إلى ذلك كثير من العلماء. ثم أتى يذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين ينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله في قوله: ﴿**إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا**﴾ فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب، وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة وتقديم الصابئين على النصارى، ورفعها هنا ونصبها هناك ترتيب ثانٍ، فالأول ترتيب على الكتب، والثاني ترتيب على الأزمنة لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين

عن النصـــارى بأنهم لا كتاب لهم فإنهم متقدمون عليهم كونهم قبلهم، لأنهم كانوا قبل عيســـى(ع)» (الاسكافي، ١٤٢٣ق: ١٦).

وهناك من يذكر أن للصـــابئين كتاباً وهو (ألزبور)، الصـــابئون فرقة تعبد الملائكة ويقرءون (ألزبور) ويتجهون نحق القبلة (التهانوي، ١٤٢٧ق: ٨٠٦/٢)، ويحتمل أن يكون الصـــابئون هم الصـــابئة المندائيون وهم فرقة دينية توحيدية ولكنها منحرفة ولديهم كتاب يســـمى (كنز ربا) ويقول الفقهاء بأنهم كتابيون أي من أهل الكتاب أمثال اليهود والنصـارى والبحث لا يسـمح بالتفصـيل عن عقائد هؤلاء وديانتهم لأن المراد في البحث بيان سـبب ودلالات التقديم والتأخير. ويرى بعض المفسـرين أن القول في التقديم هنا نكتة لا طائل من ورائها. إذ يقول: «وأما تقديم الصـابئين هنا على النصـارى، فمن قال: إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بألســـنتهم ولم تؤمن قلوبهم، يرى نكتة الترتيب بين هذه الأصـناف بالترقي من الجدير بالقبول توبته إذا صـح إيمانه، ودعم بالعمل الصـالح إلى الأجدر بذلك، ويجعل النصـــارى أقربها إلى القبول ويليهم عنده الصـــابئون، فاليهود المنافقون، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب، بل مطلق الجمع فلا حاجة إلى تكلف النكتة للتقديم والتأخير» (رشـــيدرضـــا، ١٩٤٧م: ٤٧٩/٦). فهو ينفي القول بالتقديم والتأخير في هذه الآية وهذا الكلام غير دقيق، لأن معنى التقديم والتأخير غير مســـتفاد من حرف العطف (الواو)، وقد أراد الله عز وجل في كتابه الكريم تفهيم المتلقي بهذا التقديم والتأخير، الســـياق القرآني لا يرفض هذا التقديم والتأخير لأنه من باب الغوص في معاني القرآن الكريم حيث يقول الزمخشـري: «فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت فائدة التنبيه على أن الصـابئين أبين هؤلاء الموردين ضـلالاً وأشـدهم غيّاً» (الزمخشـري، ١٩٧٣: ٤٨/٢)، ففي قولهتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ (الحج/١٧)، لم تراعى الرتبة والشرف كما سبق في الآية التي قدم فيها النصارى على الصابئين وذلك لأن الآية ليســت بصــدد ذكر الديانات الكتابية وإنما فيها عموم للديانات حتى الذين أشـركوا ويحتمل أن يكون التقديم هنا تقديماً رمانيا، أما قولهتعالى: ﴿**الَّذِينَ أَشْـــرَكُوا**﴾ جاء في الترتيب الأخير وذلك لأن المشركين في زمن النبي محمد (ص) كان أكثر من باقي المشركين في زمن الأنبياء والله العالم.

قارون وفرعون

لقد جاء ذكر قارون وفرعون في موضـــعين وهما مقترنين وقد قدم أحدهما في موضـــع وقدم الآخر في الموضـع الثاني، قال تعالى: ﴿**وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسـى بِالْبَيِّناتِ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي**

الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ﴾ (العنكبوت/٣٩)، ففي هذه الآية قدم قارون على فرعون، والموضع الثاني قوله‌تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ (غافر/٢٣-٢٤) فقد عكس التقديم ولكن مع بقاء هامان ملازماً لفرعون. وقد قيلت في توجيه هذا التقديم والتأخير عدة أقوال منها: أنه تعالى لما وصف عاداً وثموداً بأنهم كانوا مستبصرين في قوله‌تعالى: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾ (العنكبوت/٣٨)، قدم قارون لأنه كان أشد القوم بصيرة لمعرفته وحفظه التوراة. (اسئلة بيانية/١٤٥)، ويرى الآلوسي أن السبب في الابتداء بـ (قارون) هو لأن المقصود تسلية النبي(ص) فيما لقي من قومه الحاسدين له، وقارون كان من قوم موسى(ع)، ولقد لقي من ما لقي، أو لأنه حال قارون موافق لحال عاد وثمود، إذ كان أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة، ولكنه لم يفده هذا الاستبصار شيئاً وأيضاً لم يفد عاداً وثمود، وهناك احتمال آخر وهو أن تقديم قارون لأنه هلك قبل هلاك فرعون وهامان، أو كما يقول بعض الباحثين أن «قارون أشرف من فرعون وهامان، لإيمانه السابق وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى» (العارضي، ١٩٩٥م: ١٤٥).

أما في الآية التي تقدم فيها فرعون على قارون، فيحتمل أن يكون تقديم فرعون لأنه الملك، وهناك توجيه آخر يذهب فهو يرى أن تقديم قارون في سورة العنكبوت جاء مناسبةً لما ورد في السورة من بسط الرزق، فقد قال تعالى: ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء** ...﴾ (العنكبوت/٦٢) وقارون بُسط له في رزقه، قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ (غافر/٢٦)، أما في سورة غافر فإن السياق في الكلام على فرعون أولاً فقد قال تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى**﴾ (القصص/٧٦)، فتناسب تقديم فرعون في سورة غافر.

الخاتمة

هذا ما تيسر لنا جمعه ومناقشته في هذا البحث المتواضع، وإنا نوجز ما توصّلنا اليه في النقاط الاتية:

١. التقديم التأخير باب تتبارى فيه الأساليب، و تظهر المواهب و القدرات و يدلّ عَلىٰ التمكن في الفصاحة، و حسن التصرف في الكلام، و وضعه الموضع الذي يقتضيه المعني. و هذه قاعدة يتناول الناس في سلوكهم و كلامهم ؛ نحو تقدم الأهم عَلىٰ المهمّ، الأصيل عَلىٰ الدخيل و ....

٢. فقد تناولنا في هذا المقال التقديم و التأخير في القرآن الكريم، و له جزءان. قسم يشتمل عَلىٰ التقديم و التأخير في علم البلاغة وهو عَلىٰ تقديم بعض الأركان و الأجزاء في الجملة، نحو تقديم المسند عَلىٰ المسند االيه أو تقديم المفعول عَلىٰ الفاعل لأغراض بلاغية إضافةً الي معانٍ أصليةٍ فيها؛ و الآخر يبحث في تقديم وتأخير المفردات في القرآن؛ نحو الجن والإنس، والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وغيرها من الأسماء المزدوجة.

٣. إنّ كل لفظة في التعبير القرآني جاءت مقصودة لذاتها، و وضعت موضعها الذي وضعت فيه في السياق القرآني، من أجل أن تؤدي معنى مقصوداً لا تؤديه لفظة أخرى غيرها، ولا تؤديه ايضا نفس اللفظة اذا نقلناها من موضعها الذي هي فيه بالتقديم والتأخير، ولو حدث ذلك لاختل المعنى المراد من الله عزوجل.

٤. لم يكن التقديم والتاخير لرعاية الإيقاع الموسيقي فقط؛ بل الذي يسمّونه بالفواصل القرآنية، جاء مقصودا لغرض يقتضيه المقام، والمعنى الإلهي، والسياق القرآني، وكل تقديم وتاخير فيه جرى على حكمة بالغة، وقدرة فائقة، ليس فيه ما يفسد المعنى، وإنما فيه الواضح الجليّ البليغ.

٥. حاولنا في هذا البحث ان التمس الأسباب الموضوعية والأسرار الدلالية الداعية الى التقديم والتاخير. و كما نعلم؛ لاتتناهي هذه الأسباب و الأسرار الدلالية. فتستمدّ مجالا فارغا فراغَ القرآن عبرَ القرون المتمادية.

المراجع

القرآن الكريم.

ابن فارس، أحمد بن فارس. (١٤١٦ق). *معجم مقاييس اللغة*. بيروت: دار الجيل.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٢م). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

الإسكافي، أبو عبد الله. (١٤٢٣ق). *درة التنزيل وغرة التأويل*. بيروت: دار المعرفة.

الآلوسي، محمود. (٢٠٠٥م). *روح المعاني*. بيروت: دار الكتب العالمية.

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف. (١٤١٨ق). *البحر المحيط في التفسير*. بيروت: دار الفكر.

البغدادي، عبد الكريم. (١٩٧٧م). *الإكسير في علم التفسير*. القاهرة: مكتبة الآداب.

البقاعي، برهان الدين. (١٤١٣ق). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور* (ط٢). القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

بنت الشاطي، عائشة عبد الرحمن. (٢٠٠٤م). *التفسير البياني في القرآن الكريم* (ط٨). القاهرة: دار المعارف.
البيضاوي، عبد الله بن عمر. (١٤١٨ق). *أنوار التنزيل وأسرار التأويل* (ط١). بيروت: دار صادر.
التهانوي، محمد أعلى بن علي. (١٤٢٧ق). *كشاف اصطلاحات الفنون*. بيروت: دار صادر.
الجرجاني، عبد القاهر. (١٩٩٩م). *دلائل الإعجاز* (ط٢). بيروت: دار الكتب العلمية.
الحسناوي، محمد. (١٤٠٥ق). *الفاصلة في القرآن* (ط٢). عمان: دار علماء للنشر والتوزيع.
الخطيب، عبد الكريم. (١٩٦٤م). *إعجاز القرآن* (ط١). القاهرة: دار الفكر العربي.
خليل ياسين. (١٤١٣ق). *أضواء على متشابهات القرآن* (ط١). قم: ذوي القربى.
الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد. (٢٠٠٢م). *مفردات ألفاظ القرآن* (ط٣). دمشق: دار القلم.
رشيد رضا، محمد. (١٩٤٧م). *المنار في تفسير القرآن* (ط٢). القاهرة: دار المنار.
الزركشي، بدر الدين. (١٤١٢ق). *البرهان في علوم القرآن*. القاهرة: مكتبة التراث.
الزمخشري، محمود. (١٩٧٣م). *أساس البلاغة* (ط١). بيروت: دار الكتب العربية.
السامرائي، فاضل صالح. (٢٠٠٦م). *التعبير القرآني* (ط٤). الأردن: دار عمار.
السبزواري، عبد الأعلى. (٢٠٠٣م). *مواهب الرحمن في تفسير القرآن* (ط١). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.
سيبويه، عمرو بن عثمان. (١٩٩١م). *الكتاب* (ط١). القاهرة: مكتبة الخانجي.
الطباطبائي، محمد حسين. (١٤١٨ق). *الميزان في تفسير القرآن* (ط٥). قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
الطبرسي، الفضل بن الحسن. (١٤٠١ق). *مجمع البيان في تفسير القرآن* (ط٣). طهران: ناصر خسرو.
العارضي، رفاه عزيز. (٢٠١٢م). *الترتيب في القرآن الكريم* (ط١). دمشق: تموز للطباعة والنشر.
العلوي، يحيى بن حمزة. (١٩٩٥م). *الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز* (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
عون، علي أبو القاسم. (١٤٢٩ق). *بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم* (ط١). بيروت: دار المدار الإسلامي.
الفخر الرازي، محمد بن عمر. (١٩٩٠م). *التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)*. بيروت: دار الفكر.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (١٩٨٦م). *معجم العين*. بغداد: دار الحرية.
فضل، حسن عباس، وسناء فضل حسن. (٢٠٠٩م). *من إعجاز القرآن الكريم* (ط٧). الأردن: دار النفائس.
الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (٢٠١٨م). *القاموس المحيط*. بيروت: دار العلم للجميع.
الكبيسي، قاسم محمد عبد الرزاق. (١٤١٥ق). التقديم والتأخير في القرآن. *مجلة الحكمة*، (٤).
المسيري، منير. (١٤٢٦ق). *دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم* (ط١). القاهرة: مكتبة وهبة.

مكارم الشيرازي، ناصر. (١٤٣٢ق). *الأمثل في تفسير الكتاب المنزل* (ط١). قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب.